المنهج النفسي في تفسير الشعر عند ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده

د٠ نصرة احميد جدوع الزبيدي/كلية التربية للبنات

المقدمة

يمثل كتاب(العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده) نقلة نوعية فريدة تاريخ الدرس النقدي العربي بما يشتمل عليه من مادة غزيرة ومنهجية عكست عقلية فذة لمؤلفه ابن رشيق القيرواني(ت٤٥٦هـ) فهو كتاب مختص بالأدب بشقيه الشعر والنثر كما انه مثل خلاصة النظر المنهجية والفكرية العربية إلى قضية النتاج الأدبي الذي احتل موقعاً متميزاً في المجتمع العربي في مختلف مراحل وجوده٠

وهذه دراسة الموجزة معنية بتتبع واحدة من القضايا التي تتعلق بالكتاب وهي الاتجاه النفسي في نقد الشعر ٠فقد توضحت ملامح هذا الاتجاه في ثنايا معالجات مؤلفه لشتى القضايا المتعلقة بالشعر بما يؤكد قناعته بطبيعة الفن الشعري والأسس التي تقوم عليها وفي مقدمتها الأساس النفسي وبسبب سعة مادة الكتاب وتنوعها فقد تناثرت مؤشرات هذا الجانب على أجزاء الكتاب وقد مال المؤلف إلى نقل عدد كبير جدا من الآراء والموقف والنصوص عن أدباء وشعراء من شتى العصور حتى تحولت إلى وثيقة تاريخية للأدب العربي٠

تتمثل هذه الظاهرة في دراسة ابن رشيق القيرواني(ت٤٥٦هـ) لملامح المنهج النفسي من خلال تأكيده المستمر على واقع الشعر في النفوس والكيفية التي يتلقاها المستمع معززاً ذلك بأحداث ومواقف كثيرة ،وحتى تسميته لابواب الشعر نلمح جانباً من هذا الاتجاه،يقول مثلا في مسوغات إيثار الشعر على النثر فيما يتعلق بموقف المشركين الذين اتهموا فيه النبي(صلى الله عليه وسلم) بالشعر إلا ترى كيف نسبوا النبي صلى الله عليه وسلم إلى الشعر لما غلبوا وتبين عجزهم؟فقالوا:هو شاعر لما في قلوبهم من هيبة الشعر وفخامته وانه يقع ما لا يلحق والمنثور ليس كذلك)(١) ٠

وعلى الرغم من أن مكانة الشعر عند العرب اشهر من أن تعرف إلا أن ابن رشيق يركز على جانب نفسي صرف من خلال قضية الغلبة التي تعكس تخوفهم من قوة النبي(صلى الله عليه وسلم) ومتانة حجته وأسلوبه الذي يأخذ بالقلوب والألباب مما دفعهم إلى نعته بالشاعر الذي كانت منزلته الخاصة عندهم نابعة عن تخوفهم منه بالدرجة الأساس ،ولاسيما إذا كان سليط السان محترفا بالهجاء لأن الشعر يحط من

منزلة الشخص ويرفع من قدره مهما كان وان له مفعول السحر عليهم، تلك الأمور التي يؤكد عليها ابن رشيق نفسه في مواضع كثيرة من كتابه من ذلك قصة الأعشى الشاعر مع الملحق التي كان لشعر الأعشى فيها أثره في تهافت الناس على خطبة بنات الملحق الذي صار صيته بعد أن نال المديح من الشاعر الكبير(٢)٠ وقد قال فيه:

نفي الذم عن آل الملحق جفنةٌ كجابية الشيخ العراقي تفهقُ

إلى أن قال:

ترى الجود يجري ظاهراً فوق وجهه كما زان متن الهندواني رَونقُ(٣)

وما قصة الحطيئة مع بني انف الناقة وجرير مع بني نمير التي أوردها ابن رشيق ألا أنموذجا واضحة على الجانب النفسي الذي يروم أليه(٤)٠

وعلى ذكر فقد ربطه ابن رشيق بالشعر انطلاقاً من حديث النبي(صلى الله عليه وسلم)(أن من البيان لسحرا ومن الشعر لحكمة)فقد أوصل السحر بالبيان والشعر من خلال تأكيده بأن السحر يخيل للإنسان ما لم يكن للطافته وحيلة صاحبه ومثله البيان يصور الحق بصورة الباطل والعكس لرقة المعنى ولطف موقعه وأنَّ ابلغ البيانين عند العلماء هو الشعر فقد قُرن بالسحر لهذا السبب(٥) ٠

وكثير هي الشواهد التي تربط الشعر بالسحر لا بل أن الشاعر قبل الإسلام كان يؤدي وظائف تربط بالشعر في جانب منها حتى اتهم نسبوا أليه الصلة بالجن الذين يسكنون وادي عبقر فجعلوا لكل شاعر شيطاناً يمده بما يقول(٦)٠

ان المردود النفسي الذي يعكسه السحر في عقلية إنسان الصحراء يتمثل بالخوف منه ومن قواه الغامضة ومثله تخوفهم من الشعر بسبب الغموض الذي يمثل قاسما مشتركا ويظهر في أحد أوجهه من خلال البناء الفريد ومسحة الخيال التي تحرك المشاعر ولايمكن بعد هذا إن يكون الشعر محض بنية فنية وخيالاً لا يستندان إلى ذهنية متفتحة بل هو نشاط فكري يستمد قوته من قوة نفس مبدعة وحاجة نفسية لدى المتلقي ،من هنا يمكن إن تكون دراسة ابن رشيق له مقتصرة على جوانب فنية فحسب بل انه ينثر شذرات منهجه النفسي في ثنايا كتابه الكبير وما الأخبار الكثيرة التي يوردها في أبوابه المختلفة ومنها باب (في الرد على من يكره الشعر) ا تأكيد واضح في هذا الجانب وإلا فما قيمة هذا النمط من الأخبار في كتاب يختص بالشعر وما يتعلق به على أن هذه الأخبار تتجه كلها إلى إعطاء الشعر وظيفة التأثير في النفوس(٧)٠

ومن باب أدراك أهمية الشعر ووقعه في النفوس يسوق ابن رشيق عدداً وافراً من النصوص والمواقف الخاصة بشفاعات الشعراء وتحريضهم ،ومن ذلك استعطاف المتنبي لسيف الدولة في بني كلاب وكان قد أغار عليهم فغنم الأموال وسبي الحريم فأتى بعضهم المتنبي يسأله أن يذكرهم في شعره عند سيف الدولة فقال قصيدته المشهورة منها(٨)٠

ترفق آيها المولى عليهم فأن الرفق بالجاني عتاب

فانهم عبيدك حيث كانوا إذا تدعوا لنائبة أجابوا

وهناك آمران يتعلقان بهذه النقطة **أولهما** أدراك الناس أهمية الشعر أثره في النفوس لتحقيق الأغراض والغايات المختلفة،**و الآخر** يتعلق بالطريقة التي خاطب بها المتنبي سيف الدولة فقد آخذه مأخذاً خاصة يقوم على عدم معارضته له فيما فعل بهم وتأكيده على جانب الرحمة واللين،وقد وفق في اختيار الألفاظ والعبارات التي تحقق الوصول إلى نتيجة مرضية كقوله(المولى)و(عبيدك) وهاتان اللفظتان ترتبطان معنويا في التعبير عن فكرة الخضوع،والقصيدة بعد ذلك تسير على هذا النسق ولا شك في أن ابن رشيق قد اختارها كما اختار غيرها من أشعار هذا الباب لتؤكد وظيفة الشعر أثره في النفوس في المواقف الصعبة٠

وفي باب الفأل والطيرة صورة واضحة لهذا الأثر الذي يمثل أحد أسس نظرة ابن رشيق للشعر غير انه لا يتوسع في هذا الباب وفيما عدا اختياراته للنصوص لا يعتمد إلى معالجتها أو الإشارة إلى ما يتعلق بها وكان يمكن أن يقدم الشيء الكثير في هذا الباب(٩)٠

وفي موضوع آخر يبرر عدم ركون بعض الشعراء إلى الهجاء بالأنفة وكبر النفس وممن يذكرهم في هذا الباب منهم سوء الأثر وقبح السمعة(١٠)٠ وهو جانب نفسي صرف في معالجة هذه النقطة،على انه لا يعيب شاعراً ما أن يهجو أحدا في شعره،وإن كان الهجاء يحتاج إلى مقدرة خاصة ربما كان لنقصها أو اختصار بعض الشعراء أليها ممن تجنبوه سبباً في عدم طرقهم له جانب تخوفهم من مجاراة غيرهم ممن سبقوا في هذا الباب٠

وفي قوله(الشعر مذلة العقول وذلك أن أحدا ما صنعه قط فكتمه ولو كان رديئا،وانما ذلك لسروره به وإكباره اياه وهذه زيادة في فضل الشعر وتبينة على قدره وموضعه من كل نفس) (١١)، تأكيد واضح على منهجه ونظرته إلى الشعر بوصفه نتاجا له ارتباطاته الوثيقة بنفسية المنشيء،وعدم القدرة على كتمان الشعر

بـدواعي تقـديره تتعلـق بقضـية تمكنـه مـن النفوس لما له من بينة وجمالية خاصة حتى لو كان رديئا تدفع صاحبه إلى الإعجاب به وإيثاره لأذاعتـه رغم ذلـك،الأمر الـذي يؤكـد أدراك الشـاعر والمتلقـي معـاً لتفـرده وانـه يتجـاوز السـياقات الشـكلية إلـى كونـه بنـاء

وفـي تميزه لقواعد الشعر جانـب آخـر من جوانـب اتجاهه النفسي في فهمه فيرى أنها أربعة:**الرغبـة والرهبـة والطرب والغضـب** فيـأتي مـع الرغبـة المـديح ومـع الغضـب الهجاء والوعيد(١٠)

فهو يصف الشعر على أساس الطباع والحالات المتعلقة بنفسية الشاعر وإذا قابلنا هذه النظرة مع نظرة الخليفة الراشد على ابن طالب(رضـي الله عنـه) ألـي مكانـة ومقـدرة امـريء القـيس حيـث يقـول كـل شـعرائكم محسن ولـو جمعهم زمـان واحد وغايـة واحدة ومذهب واحد فـي القـول لعلمنـا أيهم اسبق إلى ذلك وكلهم قد أصاب الذي أراد واحسن فيه وان يكن أحد فضلهن فالذي لم يقل رغبة ولا رهبة امرؤ القيس بن حجر فانه أصحهم بادرة واجودهم نادرة)(١٤)٠

أي نجد تطابقا معنويا بينهما في مسألة الشعر والأحاسيس التي تنتجه،فأمرؤ القيس قد اغلب على شعره التسيب والوصف وله اهاجي وقصـائد وعيد إلـى قتلـة أبيـه وخـلا شعره من الاعتذار والاستعطاف تقريبا وإن مدائحه القليلـة كانـت لأشـخاص معنيـين لـم فريدا الطراز يستلزم قدرات خاصة،ويؤكد ابن رشـيق ذلـك فـي موضـع آخـر مـن كتابـه إذ يقول ليس للجودة في الشعر صفة وانما هو شـيء يقـع في النفس عند المميز:كالفرد فـي السيف والملاحة في الوجه) (١٢)٠

يهدف من ورائها إلى الكسب المادي بقدر سـعيه لتثمـين الخـدمات التـي قـدموها لـه كالسموال وغيره (١٥)٠

ويفهم من كلام ابن رشيق السابق إن الرغبة تعني مطامح التي يسعى الناس إلى تحقيقهـا كالحصـول علـى الجـائزة أو نيـل مكانـة رفيعـة علـى غـرار مـدائح النابغـة الذبياني ومدائح المتنبي في كافور (١٦)٠

علـى انـه أشـار فـي موضـع أخـر مـن الكتـاب الـى سـقوط منزلـة النابغـة الـذبياني بسبب تكسبه بالشعر مما يجعل مبدأ الرغبة قاعدة مـن قواعـد الشـعر وثغرة مـن ثغـرات والمأخذ التي يمكن تسجيل عليه بوصفه فناً نفعياً عند بعض الشعراء٠

ومن اوكد الدلائل على نظرة ابن رشيق للشعر وفق الرؤية النفسية ما جاء من آرائه فـي باب(عمـل الشـعر وشـحذ القريحـة)حيث يقول:لابـــــد للشـــــاعر وان كـــــان فحلاً،حاذقاً،مبرزاً،مقدماً مـن فتـرة تعـرض لـه بعـض الأوقـات إمـا لشـغل يسـير أو مـوت قريحة أو نبو طبع في تلك الساعة أو ذلك الحين) (١٧)٠

فحالات الفتور والوهن وموت القريحة التي أشار أليها تؤكد توجهه النفسي في فهم الشعر ويضيف في موضع آخر ذاكراً وسائل الشعراء لاستدعاء الشعر:(ثم أن للناس فيما بعد ضروبا مختلفة يستدعون بها الشعر وشحذ القرائح وتنبيه الخواطر وتلين عريكة الكلام وتسهل طريقة الكلام كل امريء على تركيب طبعه واطراد عادته) (١٨)٠

وعلى الرغم من انه لا يشخص الأسباب ألا انه يقر بحتمية مرور جميع الشعراء بتلك المرحلة أياً كانت منزلتهم غير أن قوله(شغل يسير)و(موت قريحة)يقعان على طرفي نقيض لان الأول ليس كالثاني فالشغل اليسير قد يكون ناتجا عن قلق سببه ضرف طارئ أو تكاسل أو انشغال بلهو أو غيره غير أن موت القريحة اشد أثراً وضرراً على الشاعر لان ذلك يعني نضوب القدرة على التصرف بالمعاني والألفاظ وعلى ذلك يمكن أن نميز مستويين للضعف الذي يقصده هنا:

<u>الأول</u>: فتور وقتي له أسباب طارئة يزول بزوالها٠

<u>الثاني</u>: فتور دائم سببه أساسا محدودية المقدرة الفنية ويمكن أن ندرج تحت هذا المستوى الشعراء المقلون الذين تأكد لدينا قلة شعرهم لاسباب خارجة عن ظروف الرواية والنقل التي قد تسبب ضياع الجزء الإعظام من أشعارهم وهذا يقودنا إلى آمر آخر يتعلق بمسألة محدودية النتاج الشعري عند الطائفة من الشعراء الذين يتعالون عن بعض الإغراض الشعرية وهل انهم مهيأون حقا للنظم فيها وان ما أنتجوه من الشعر في إغراض أخرى قد يرتبط بظرف آني حرك نفوسهم وترك فيها آثار كانت السبب في نتاجهم الشعري٠

وفي معالجة أوقات قرض الشعر التي يكون الشاعر فيها مستعدا نفسيا للدخول في معترك القصيدة يتبين لنا الأساس النفسي الذي يفهم ابن رشيق بموجبه عملية الإبداع الشعري وقد حاول أن يحدد تلك الأوقات على غرار ما فعل ابن قتيبة(ت٢٧٦هـ) ويلخصها بالقول☹ومما يجمع الفكرة عن طريق الفلسفة استلقاء الرجل على ظهره،وعلى كل حال فليس يفتح مقفل بحار الخواطر مثل مباكرة العمل بالأسحار عند الهبوب من النوم لكون النفس مجتمعة لم يتفرق حسها في أسباب ألهو أو المعيشة أو غير ذلك مما يعييها وإذ هي مستريحة جديدة كأنما أنشئت أخرى(النص) (١٩)٠

وبالتأكيد أن توفر عنصر التجربة الشعرية الخاصة له أثره في هذا التخصيص للحالات والبواعث لقول الشاعر،وعند مقابلة الأوضاع والأوقات التي ذكرها ابن رشيق مع الأوقات ابن قتيبة التي رآها مناسبة لغرض الشعر التي لخصها بالطمع والشوق

والشراب والطرب والغضب (٢٠) ،نجد انهما يلتقيان في تأكيدهما على الجانب النفسي في العملية الشعرية فما لم تكن النفس مستعدة لايمكن أن تتوافر لها عنصر الإبداع،غير أن هذه النظرة لاتعني إن الشاعر بإمكانه دائما أن يبدع في حالة استقراره النفسي عموما فان عملية الشعرية لابد أن تسبق بمراحل تخلخل وعدم استقرار بدوافع خارجية تحاكي أحاسيس وأفكار خاصة تنطوي عليها ذات الشاعر ٠

وفي الوقت الذي لا يمكن أن نحمل فيه منهج ابن رشيق اكثر مما انطوى عليه من مظاهر التوجه النفسي والنظرة إلى الفن الشعري فأننا يمكن أن نلخص أسباب تبعثر هذه المظاهر بسعة الكتاب وسعي مؤلفه إلى تغطية كل ما يتعلق بالفن الشعري ابتداء من التعريفات للشعر وأركانه من أغراض وجوانب عروضية وصولا إلى ثقافة الشاعر الأمر الذي أدى إلى عدم وضوح منهجه في هذا الاتجاه غير أننا نلمح شذرات متفرقة تؤكد قدرته على البصر بالنصوص الكثيرة جداً والتي ضمنها كتابه الذي يعكس ثقافة أدبية واسعة مكنته من تبويب الموضوعات وتنويعها إلى جانب غزارة مادته الشعرية والنثرية التي اشتملت على أراء واستشهادات كثيرة ألا انه وعلى الرغم مما قد يقال من انه نقل عن غبره اكثر مما كتب إلا انه ناقش وقبل ورفض النصوص التي نقلها وبين وجهة نظره ومذهبه (٢١)٠

وحين ندعو وجود منهج نفسي في فهمه للشعر فأننا نستند في ذلك إلى ما جاء في الكتاب من آراء وتعليقات وحتى في اختيار المصنف لابواب كتابه اتجه نحو تأكيد هذا الهدف الذي عبر عن إدراكه العميق لما هية العملية الشعرية بوصفها حالة جدا تميز الشاعر عن غيره ٠

الهوامش:

(١) العمدة١/٢١ ٠
(٢) نفسه ١/٤٨ ٠
(٣) ديوانه/٣٧٥٠
(٤) العمدة١/٥٠ ٠
(٥) نفسه١/٢٧ ٠
(٦) تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام/٤٥ وما بعدها٠و/١٩٦
(٧) العمدة١/٢٨ وما بعدها٠
(٨) شرح ديوانه١/٢٠٩ ٠
(٩) العمدة ١/٦٧ ٠
(١٠)نفسه ١/٧٧ ٠
(١١)العمدة١/١١٧ ٠

(١٢)نفسه١/١١٩ ٠
(١٣)نفسه١/١٢٠ ٠
(١٤)الاغاني١٦/٢٩٧ ٠
(١٥)العصر الجاهلي/٢٦٠ ٠
(١٦)العصر الجاهلي/٢٧٠ في مدائح النابغة،وأبو الطيب المتنبي في آثار الدارسين/١٨٦-١٨٧ ٠
(١٧)العمدة ١/٢٠٤ ٠
(١٨)نفسه١/٢٠٥ ٠
(١٩)العمدة١/٢٠٨ ٠
(٢٠)الشعر والشعراء١/٢٣ ٠
(٢١)مقالات في تاريخ النقد/٣٦٤ ٠

المصادر:

١- أبو الطيب المتنبي في آثار الدارسين،عبدا لله جبوري ،بغداد د٠ ت٠
٢- الأغاني،أبو فرج الأصفهاني،نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب،لجنة التأليف والنشر القاهرة٠
٣- تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام،نوري حمودي القيسي وآخرون،دار الحرية للطباعة ،بغداد،١٩٧٩ ٠
٤- ديوان الأعشى الكبير،شرح محمد محمد حسين،دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٤ ٠
٥- شرح ديوان المتنبي،عبدا لرحمن البرقوقي،دار الكتاب العربي،بيروت،د٠ت٠
٦- الشعر والشعراء ،ابن قتيبة:عبدا لله بن مسلم(ت٢٦٢)،بيروت ١٩٦٤ ٠
٧- العصر الجاهلي،شوقي ضيف،دار المعارف،ط٨،القاهرة ١٩٧٧ ٠
٨- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،أبو على الحسن بن رشيق القيرواني(ت٤٥٦ هـ) دار الجيل،ط٤،بيروت،١٩٧٢ ٠
٩- مقالات في تاريخ النقد،داود سلوم،وزارة الثقافة والأعلام،بغداد١٩٨١ ٠